كارثة الاحتلال

الهزيمة

بلغ عرابى العاصمة ظهر يوم الهزيمة - الأربعاء ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ -، وكان أعضاء المجلس العرفى مجتمعين منذ ساعات طويلة فى "قصر النيل" ينتظرون أنباء المعركة، وبقى يعقوب باشا سامى ملازما مكتب التلغراف دون أن يكاشف أحدا بما كان يتلقاه من الأخبار، إلى أن أنبأ الحاضرين أن ناظر الجهادية "عرابى" قادم على عجل إلى العاصمة، فأيقنوا أنها الهزيمة لا محالة.

وبعد قليل جاء عرابى يصحبه على الروبى، وكان وجهه مكفهرا وعلائم الاضطراب بادية عليه.. فجلس على مقعده وظل صامتا لا يتكلم بادية عليه.. فجلس على مقعده وظل صامتا لا يتكلم مدة عشرين دقيقة، ثم عقد مجلس حافل فى قصر النيل من أعضاء المجلس العرفى وبعض الأمراء والكبراء، وأخذ عرابى يشرح لهم أسباب الهزيمة وكيف فوجئ بهجوم الإنجليز ونسب إلى الحمد عم أطاعة أوامره فى اقتال. ثم استشار الحاضرين فيما يجب عمله، وهل يجب الاستمرار فى المقاومة أم أن الصواب فى التسليم.. فاختلفت الآراء، وكثر اللغط، وتشبعت أفكار القوم، ثم قام الأمير إبراهيم باشا أحمد ابن عم الخديو وحث على الاستمرار فى المقاومة قائلا: "إن القاهرة غاصة بالجند ومخازن الحربية ملأى بالسلاح والذخيرة والميرة، ووسائل الدفاع متوافرة، والواجب هو الدفاع ما دام فينا بقية". فاستحسن اليأس وجنحت إلى التسليم، واستقر الرأى فى هذا الاجتماع على إنشاء خط دفاعى فى ضواحى العاصمة.

وإنفاذا لهذا الرأى ذهب عـرابى إلى العباسية يحـصبه محمـد مرعشلى باشا باشمهندس الاسـتحكامات ومحمد رضا باشـا قائد لواء الفرسان واللواء حـسن باشا مظهـر لاختـيار الموقـع الملائم لخط الدفاع. وطلب من مـحمـد مرعشلى باشا وضع تصميم لإنشاء خط دفاعى أمام المطرية شرقى عين شمس ليستند يمـينا إلى الجبل ويمتد شـمالا إلى ترعة الاسماعـيلية ثم ينعطف إلى النيل عند فم رياح ترعة الاسمـاعيلية بالقرب من شبرا، ثم ذهـبوا إلى مركز الطوبجيـة قال عرابى فى هذا الصدد: "وأدرنا اسـتعراض العسـاكر الموجودة هناك فلم نجد إلا ألف رجل من خفراء البلاد بغيـر ضباط، ونحو أربعين نفر سوارى فى مركـزعساكر الخيـالةو مع الميرالاى أحمد بك نير، فـقال الميرلاى المذكور أنه يقف فى وجه العدو ويقاتله برجاله الأربعين حتى يموت ولكن ما الفـائد وليس لدينا جـيش يقوى علـى الدفاع، فلمـا شـاهدنا ذلك علمنا أن الأولى حقن الدماء وحفظ القاهرة من غوائل الحرب والدمار".

ثم رجع عـرابى ومن مـعه إلى المجلس العـرفى بقـصـر النيل وأخبـر الحاضرين بما شاهده.. فاستقر رأى الحاضرين على التسليم وكتابة عريضة إلى الخديو يلتمسون فيها العفـو عنهم ويقدمون له الخضوع ويعتذرون عن أفعالهم الماضيـة. فنحرروا العريضـة وأمضاها عـرابى ومن معـه، وأرسلوها مع وفد مؤلـف من محـمد رؤوف باشـا حكمدار السـودان السابق، وبطرس غـالى باشا.. ورؤوف باشا هو الذى تولى فـيما بعد رياسة المحكـمة العسكرية التى حكمت على عرابى وصحبه بالإعدام.

احتلال العاصمة

لم تكد تنتهى معركة التل الكبير بما انتهت إليه حتى أمر الجنرال ولسلى فرقة الفرسان بقيادة الجنرال "درودى لو" تبادر بالزحف على القاهرة لاحتلالها. وأمر الجيش الهندى بقيادة الجنرال مكفرسن باحتلال الزقازيق لمنع الجيش المصرى من استخدامها قاعدة لمواصلات السكك الحديدية.. فسار الفرسان نحو بلبيس واحتلوها ظهر يوم الخميس ١٣ سبتمبر، وحجز بها الجنرال دروري لو يوم الخميس ١٣ سبتمبر، وحجز بها الجنرال دروري لو التلغراف التى أعدها عرابى إلى مديريات الوجه البحرى بحشد الجنود لمقاومة زحف الجيش البريطانى، واحتل الجنرال مكفرسن الزقازيق فى ذلك اليوم دون مقاومة واستولى فيها على خمسة قطرات مشحونة بالذخيرة والمؤن واستأنف الجنرال دروري لو الزحف قاصدا العاصمة يوم الخميس ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢، فتحرك من بلبيس فى منتصف الساعة الخامسة صباحا فى قوة لا يمكن أن تكفى فى الأوقات العادية لاحتلال العاصمة، ولكن هزيمة التل الكبير قد قضت على روح المقاومة.

بلغ الجنود الإنجليز العباسية فى نحو الساعة الرابعة مساء وعسكروا فى ثكنات الفرسان بها.. وأرسل الجنرال دروري لو إلى محمد رضا باشا قائد الجند بالعباسية يطلب إليه تجريد الجنود المصريين من أسلحتهم. وكان عرابى وصحبه مجتمعين فى دار على باشا فهمى الذى كان لم يزل جريحا ملازما بيته بعد إصابته القصاصين، فتلقى فى نحو الساعة السادسة مساء تلغرافا من قائد العباسية بوصول طلائع الإنجليز، فأرسل عرابى يأمره بالتسليم للقائد البريطانى.

ولما انفض الاجتماع خرج عرابى يصحبه طلبة باشا عصمت ومحمود سامى باشا البارودى والمسيو جون نينيه. . فأشار عليهم المسيو نينيه بأن يسلموا أنفسهم كأسرى حرب للقائد البريطانى، فعمل عرابى وطلبة بنصيحته، وتهيأ الاثنان للذهاب إلى العباسية لكى يسلما نفسيهما للجنرال دروري لو. أما محمود سامى البارودى فلم يقبل هذه النصيحة وقال: "إنى ذاهب إلى منزلى فإذا أرادونى فإنهم يعرفون أين يجدوننى"، وذهب عرابى إلى منزله يحصبه طلبة باشا والمسيو نينيه، وأخذ يتأهب لتسليم نفسه، فلبس رداءه العسكرى وأخذ سيفه. وفى نحو الساعة التاسعة مساء ركب عربة يصحبه طلبة باشا، وأمر سائقها بالتوجه إلى ثكنات الجيش بالعباسية، فلما بلغاها جئ بهما إلى الجنرال دروري لو، فسلما سيفيهما إليه، فأمر باعتقالهما فى غرفة من غرف الثكنة. وسارت كتيبة من الفرسان البريطانيين ليلا إلى القلعة من طريق الجبل واحتلتها وسلمت الحامية المصرية.

وتولى تسليم القلعة الأميرلاى على يوسف خنفس ذلك الخائن الذى فتح لهم الطريق فى وقعة التل الكبير.

واحتل الإنجليز أيضا قصر النيل وقشلاف عبادين، وسلم الخنود الذين كانوا بهما أسلحتهم. . فكان ذلك إيذانا باحتلال العاصمة.

وقد خرج بعض الأهلين من سكان باب الشعرية والحسينية يحملون الهراوات بقصد محاربة الإنجليز. ولكن محافظ العاصمة إبراهيم بك فوزى رأى فى هذه الحركة عملا لا يجدى ولا يؤدى إلا إلى سفك الدماء، فردهم وأخذ يرقب حركاتهم منعا لوقوع الاحتكاك بين الإنجليز والأهلين واحتل الإنجليز بعد ذلك مواقع الدفاع الأخرى دون مقاومة. . ففى كفر الدوار حين

علم ضباط الجيش فى مواقع الدفاع الأخرى بسقوط التل الكبير واستسلام عرابى استسلموا مثله. وقد علم طلبة باشا عصمت فى كفر الدوار بالهزيمة يوم وقوعها، فسافر على عجل إلى العاصمة فبلغها مساء ١٣ سبتمبر، والتقى بعرابى وسلم نفسه معه إلى القائد درورى لو.

ولما علم بسفره تركوا أسلحتهم لضباطهم وتشتتوا ذاهبين إلى بلادهم، وكذلك فعل العربان، وحضر السير أفلن وود أحد قواد الجيش البريطانى - الذى عين فيما بعد سردارا للجيش المصرى - فى ١٦ سبتمبر على رأس كتيبة من الجند إلى موقع الحصن المنيع الذى أنشأه عرابى وكان أول خطوط الدفاع، ويعرف بعزبة "أصلان" فاحتله.. وكان يصحبه إلى ذلك المكان ضابط من أركان حربه وآخرون من قبل الخديو، وأمر بسف الحصن.. فنسف وسلم الضباط المصريون أسلحتهم، وأعلنوا طاعتهم للخديو، واستولى الإنجليز فى كفر الدوار على ما بها من المدافع والبنادق والذخائر.

وحين علم محمود سامى باشا البارودى قائد موقع الصالحية بالهزيمة، تركها ومن معه من الضباط والجنود وركبوا قطرات السكة الحديدية إلى المنصورة ومنها إلى طنطا ثم إلى إيتاى البارود فكوم حمادة فبولاق الدكرور، وانحل نظام الجند، وتوجه كل منهم إلى بلده. وارتأى البارودى وجوب استمرار الدفاع مع إخلاء القاهرة والإنسحاب بالجيش إلى الصعيد ثم إلى السودان إذا أعجزهم الدفاع. وأرسل إلى عرابى تلغرافا من المنصورة يطلب منه إغراق مديريتى القليوبية والشرقية لتعطيل زحف الجيش الإنجليزى، ثم الاستيلاء على جميع المراكب فى النيل وشحنها بالذخيرة وتوجيهها إلى الصعيد مع الجيش. ولكن عرابى رفض العمل بهذا الرأى وأصر على التسليم، وسجن البارودى بالقاهرة ضمن من سجن من العرابيين.

وتسلم الإنجليز رشيد، وتوقفت حامية أبو قير عن التسليم فأرسل إليها الخديو يوسف شهدى باشا فسلمت، وسلمت كذلك حامية مريوط، ثم حامية دمياط

تأليف وزارة شريف باشا (الرابعة)

تبين فى غضون الحوادث السابقة أن وزارة إسماعيل راغب باشا لا قبل لها بمواجهة المشاكل التى استهدفت لها البلاد وأنها أضعف من أن تقوم بأعباء الحكم وسط هذه العواصف المختلفة، فاستقالت لذلك، وساتدعى الخديو رياض باشا من أوربا فقدم إليها فى أوساط شهر أغسطس سنة ١٨٨٢، وبعد قدومه عهد إلى شريف باشا تأليف الوزارة، فلبى دعوته وألف الوزارة على النحو الآتى:

شريف باشا للرياسة والخارجية. رياض باشا للداخلية. عمر باشا لطفى للحربية والبحرية. على حيدر باشا للمالية على باشا مبارك للأشغال. أحمد خيرى باشا للمعارف. حسين فخرى باشا للحقانية. محمد زكى باشا للأوقاف.

والوزارة كما ترى مؤلف من أعضاء تجمعهم فكرة تأييد سلطة الخديو ومخالفة العرابيين، فشريف باشا قد انفصل ورياض باشا معروف بكراهيته لهم، وكذلك عمر باشا لطفى، وعلى باشا مبارك كان وزيرا فى وزارة رياض باشا الأولى التى أسقطتها الثورة فى سبتمبر سنة ١٨٨١، وبقية الوزراء من الموالين للخديو.

***